مِنْ خُطَبِ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ/

أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيد رَسْلَان (حَفِظَهُ اللهُ)

لَيْلَةُ الْقَدْرِ

فِي الْأَشْفَاعِ أَحْيَانًا

تَارِيخُ إِلْقَاءِ الْمُحَاضَرَةِ:

الجمعة 16 من رمضان 1428هـ الموافق 28-9-2007م

تَحْتَ إِشْرَافِ:

الْقِسْمِ الْعِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ مِنْهَاجِ الْأَنْبِيَاءِ

[الْخُطْبَةُ الْأُولَى]

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:70-71].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَجْتَهِدُ فِي رَمَضَانَ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ، وَكَانَ فِي الْعَشْرِ -تَعْنِي: يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ- مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ. فَتَحَصَّلَ مِنْ هَذَا أَنَّهَا تُخْبِرُ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ مِثْلَهُ طُولَ الْعَامِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَجْتَهِدُ فِي رَمَضَانَ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ، وَيَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ.

وَلِذَلِكَ لِأَمْرَيْنِ:

- لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِخَوَاتِيمِهَا، وَالْعَشْرَ الْأَخِيرَ مِنْ رَمَضَانَ يُخْتَمُ بِهِ رَمَضَانَ، فَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَحْرِصُ عَلَى الِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ فِيهِ مَا لَا يَفْعَلُ فِي غَيْرِهِ.
- وَلِأَنَّ الْعَشْرَ الْأَخِيرَ مِنْ رَمَضَانَ فِيهِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ -كَمَا أَخْبَرَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- -كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ- أَنَّ ((**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**)).

فَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ، شَدَّ الْمِئْزَرَ، وَأَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ.

((**وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ**)) فِي رِوَايَةِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- يُفَسِّرُ قَوْلَهَا أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ.

وَشَدُّ الْمِئْزَرِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِدِّ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا تُخْبِرُ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- كَانَ يَصْنَعُ شَيْئًا آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فِي الْعَشْرِ، لِقَوْلِهَا: ((**جَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ**)) فَلَوْ كَانَ شَدُّ الْمِئْزَرِ بِمَعْنَى الْجِدِّ فَقَدْ ذَكَرَتْهُ، وَكَلَامُهَا لَا لَغْوٌ فِيهِ وَلَا حَشْوٌ وَلَا تَطْوِيلٌ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ بَلِيغٌ فَصِيحٌ هَيِّنٌ لَيِّنٌ.

وَقَدْ وَرَدَ التَّصْرِيحُ بِاعْتِزَالِ النِّسَاءِ فِي حَدِيثٍ آخَرَ، وَذَلِكَ مَعْلُومٌ مِنْ فِعْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ، وَفِي الِاعْتِكَافِ اعْتِزَالُ النِّسَاءِ بِالنَّصِّ، فَهَذَا مِمَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهُ الْمُعْتَكِفُ.

فَكَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ اعْتَزَلَ النِّسَاءَ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ فِي الْأَمْرِ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

فَهَذَا الزَّمَانُ مِنَ الْعَامِ زَمَانُ اجْتِهَادٍ فِي الْعِبَادَةِ إِلَى أَقْصَى دَرَجَةٍ يَسْتَطِيعُهَا الْمُسْلِمُ، فَإِنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- تُخْبِرُ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يُحْيِي فِي الْعَشْرِ اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: ((**أَحْيَا لَيْلَهُ**)).

وَقَدْ وَرَدَ عَنْهَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يَثْبُتْ أَبَدًا، وَلَمْ يَصْنَعْ أَبَدًا صَنِيعًا نَفَتْهُ هِيَ، وَهُوَ أَنَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يُحْيِي اللَّيْلَ بِالْقِيَامِ بِالصَّلَاةِ يُحْيِي بِذَلِكَ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَهِيَ تَنْفِي هَذَا، وَهِيَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- تُخْبِرُ أَنَّهُ كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ.

وَلَا تَعَارُضَ؛ لِأَنَّ إِحْيَاءَ اللَّيْلِ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِقِيَامٍ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، بَلْ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يُحْيِي اللَّيْلَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ بِالصَّلَاةِ، وَبِمُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ، وَبِالذِّكْرِ، وَبِالدُّعَاءِ.

فَكَانَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَأْتِي بِأَلْوَانِ الْعِبَادَاتِ، وَيَسْتَقِيمُ كَلَامُ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فِي قَوْلِهَا: ((**وَأَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ**)) تَعْنِي: لَيَالِيَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ. مَعَ إِخْبَارِهَا بِأَنَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يُحْيِ اللَّيْلَ بِقِيَامٍ إِلَى الْفَجْرِ أَبَدًا.

فَهَذَا الزَّمَانُ زَمَانُ جِدٍّ وَاجْتِهَادٍ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ فِيهِ لَيْلَةً هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهَا الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ الْمَحْرُومُ، وَمَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَهُوَ الْمَحْرُومُ، وَالْمَفْهُومُ أَنَّ

مَنْ أَصَابَهَا وَمَنَّ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ بِقِيَامِهَا، وَبِالذِّكْرِ وَالتِّلَاوَةِ وَمُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالدُّعَاءِ وَالتَّبَتُّلِ.

الْمَفْهُومُ أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ، وَأَجْزَلَ لَهُ الْعَطَاءَ؛ لِأَنَّ الْمَحْرُومَ مَنْ حُرِمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَمَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا، وَإِذَنْ فَمَنْ أَصَابَهَا وَمَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهَا فَهَذَا لَيْسَ بِمَحْرُومٍ، بَلْ هَذَا يُعْطَى مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ وَالْفَضْلَ الْجَزِيلَ.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي شَأْنِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ سُورَةً كَامِلَةً، وَهَذَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى فَضْلِهَا وَعَظِيمِ شَرَفِهَا، أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْزَلَ فِي فَضْلِهَا وَفِي التَّنْوِيهِ بِعُلُوِّ قَدْرِهَا سُورَةً كَامِلَةً تُتْلَى فِي الْمَحَارِيبِ إِلَى أَنْ يَرْفَعَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْقُرْآنَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مِنَ الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَ أَنَّهَا لَيْلَةٌ مَوْصُوفَةٌ بِالشَّرَفِ، مَوْصُوفَةٌ بِالتَّقْدِيرِ، عَلَى قَوْلَيْنِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَ أَنَّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، وَالْقَدْرُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}. وَهِيَ هَذِهِ اللَّيْلَةُ، هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، هِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهَا الْقُرْآنَ.

وَفِيهَا يُفْرَقُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَامِ إِلَى الْعَامِ مِنْ أُمُورِ الْخَلْقِ فِي الْأَرْضِ عَلَى حَسَبِ عِلْمِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ، فَذَلِكَ يَكُونُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي كُلِّ عَامٍ، يُقَدَّرُ فِيهَا مَا

يَكُونُ إِلَى الْعَامِ الْآخَرِ مِمَّنْ يَحْيَا وَيَمُوتُ، وَمِمَّنْ يَسْعَدُ وَيَشْقَى، وَمِمَّنْ يُرْفَعُ وَيُخْفَضُ، وَمِمَّنْ يُعْطَى وَيُمْنَعُ، وَمِمَّنْ يَعْتَمِرُ وَيَحُجُّ، إِلَى آخِرِ ذَلِكَ مِنْ مَقَادِيرِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- .

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَذَكَرَ أَنَّ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ.

وَقَوْلُ رَبِّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}.

قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا} ذَكَرَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَكَذَا ضَمِيرًا لِلْعَظَمَةِ، وَعِنْدَ الْعَظَمَةِ يَكُونُ هَكَذَا بِالْجَمْعِ مُرَاعَاةً لِلصِّفَةِ، فَإِذَا أَرَادَ الصِّفَةَ أَتَى بِضَمِيرِ الْجَمْعِ {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، وَإِذَا أَرَادَ الْوَحْدَانِيَّةَ أَتَى بِضَمِيرِ الْإِفْرَادِ، وَأَمَّا إِذَا أَرَادَ الصِّفَةَ، إِذَا أَرَادَ الْعَظَمَةَ، كَمَا هُنَا، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِضَمِيرِ الْجَمْعِ {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ}.

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَنْزَلْنَاهُ} هَذِهِ الْهَاءُ مَرْجِعُهَا إِلَى الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَلَيْسَ مَذْكُورًا قَبْلُ، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، مَا الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ؟! لَمْ يَسْبِقْ لَهُ ذِكْرٌ، وَلَكِنْ هُوَ مَعْلُومٌ لَا يُمَارِي أَحَدٌ فِي أَنَّهُ كِتَابُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، فَأَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ دَفْعَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ رَمَضَانَ.

فَهَذَا قَوْلُ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}.

فَإِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي رَمَضَانَ، وَأَخْبَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَلَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ، أَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهَا الْقُرْآنَ -عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ- دَفْعَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَبَدَأَ نُزُولُ الْقُرْآنِ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي رَمَضَانَ، وَكَانَ يَتَحَنَّثُ فِي غَارِ حِرَاءَ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَأَرْسَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ أَمِينَ الْوَحْيِ جِبْرِيلَ، فَجَاءَهُ بِصَدْرِ سُورَةِ {اقْرَأْ}، بِصَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ أَوَّلَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي رَمَضَانَ.

وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ شَرَّفَ هَذَا الزَّمَانَ بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِيهِ، وَجَعَلَ اللَّيْلَةَ الْمُبَارَكَةَ لَيْلَةً ذَاتَ قَدْرٍ، وَذَاتَ شَرَفٍ، وَذَاتَ تَقْدِيرٍ، لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِيهَا، فَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ- أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فِي هَذَا الزَّمَانِ.

فَكَانَ صِيَامُ الشَّهْرِ بِسَبَبِ نُزُولِ الْقُرْآنِ فِيهِ، لِقَوْلِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}، فَلَمَّا رَتَّبَ عَلَيْهِ؛ أَيْ: عَلَى هَذَا الْإِنْزَالِ، رَتَّبَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ، عَلِمَ أَنَّ الصِّيَامَ فِي هَذَا الشَّهْرِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِيهِ.

وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ذَاتَ قَدْرٍ، وَذَاتَ شَرَفٍ، وَذَاتَ تَقْدِيرٍ أَيْضًا لِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِيهَا، {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَنْ قَامَهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} فَأَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْقُرْآنَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، فَهِيَ لَيْلَةٌ ذَاتُ شَرَفٍ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْزَلَ فِيهَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

وَهِيَ لَيْلَةُ التَّقْدِيرِ أَيْضًا عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي عِنْدَ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يُقَدِّرُ فِيهَا مَقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ بِنُسْخَةٍ مِمَّا قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَرَى بِهِ الْقَلَمُ، وَخُطَّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ بِنُسْخَةٍ تَكُونُ فِي كُلِّ عَامٍ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ بِمَا يَكُونُ إِلَى الْعَامِ الَّذِي يَلِي، إِلَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ الَّتِي تَلِي، فَجَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَيْلَةً مُبَارَكَةً ذَاتَ شَرَفٍ، وَجَعَلَهَا ذَاتَ قَدْرٍ، يُقَدِّرُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهَا تِلْكَ الْأُمُورَ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ الْمَوْصُوفِ {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْزَلَ فِيهَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ} وَهَذَا التَّرْكِيبُ عِنْدَمَا تَرَاهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّمَا يُسَاقُ مِنْ أَجْلِ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}؛ وَمَا أَعْلَمَكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ. وَإِذَا رَأَيْتَهُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ سَيُدْرِيهِ، فَكُلُّ {مَا أَدْرَاكَ} فِي الْقُرْآنِ أَدْرَاهُ، وَكُلُّ {مَا يُدْرِيكَ} لَمْ يُدْرِهِ.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}، فَأَدْرَاهُ.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ} تَفْخِيمًا لِشَأْنِهَا، وَتَعْظِيمًا لِقَدْرِهَا.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}، ثُمَّ أَعْلَمَهُ وَأَدْرَاهُ، {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}، لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وَتَأَمَّلْ لَوْ أَنَّ اللهَ أَحْيَاكَ خَمْسِينَ عَامًا، تَصُومُ فِي كُلِّ عَامٍ شَهْرًا فَرَضَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْكَ، فِيهِ -فِي كُلِّ عَامٍ مِمَّا صُمْتَ مِنْ شُهُورِ ذَلِكَ الْعَامِ- لَيْلَةٌ هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، فَلَوْ أَحْيَاكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ خَمْسِينَ عَامًا، فَقَدْ حَصَلَ لَكَ مِنَ الْعُمُرِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ اللَّيْلَةَ الْوَاحِدَةَ فِي هَذَا الشَّهْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ بِأَلْفِ سَنَةٍ.

فَإِنْ عِشْتَ خَمْسِينَ عَامًا تَصُومُ رَمَضَانَ وَتَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، عَسَى أَنْ تُوَفَّقَ فِي الطَّلَبِ لِلْحُصُولِ عَلَى مُبْتَغَاكَ، فَإِنَّكَ تَكُونُ قَدِ امْتَدَدْتَ بِتَحْصِيلِ الْخَيْرِ فِي الزَّمَانِ فِي عُمْقِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ!!

وَهَذَا كَثِيرٌ كَمَا تَرَى؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ هِيَ أَقْصَرُ الْأُمَمِ أَعْمَارًا، فَجَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ هَذَا الْقَدْرَ الْكَبِيرَ، وَخَصَّ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِخَصَائِصَ لَمْ يَجْعَلْهَا لِلْأُمَمِ قَبْلَهَا، كَمَا خَصَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِخَصَائِصَ انْفَرَدَ بِهَا عَنِ الْأُمَّةِ، وَانْفَرَدَ بِهَا عَمَّنْ سَبَقَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، ((**وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي**))، وَحَرَّمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْقِتَالَ عَلَى الْجَمِيعِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ، وَأَحَلَّهَا لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ -

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، إِلَى خَصَائِصَ عَدَّهَا الْعُلَمَاءُ وَحَرَّرُوهَا -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ-.

{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

{تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ}؛ يَعْنِي: تَنَزَّلُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ بِكَثْرَةٍ كَاثِرَةٍ، حَتَّى لَتَمْلَأُ جَوَانِبَ الْأَرْضِ.

{وَالرُّوحُ فِيهَا}؛ يَعْنِي: وَيَتَنَزَّلُ الرُّوحُ فِيهَا، وَالرُّوحُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، فَخَصَّهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالذِّكْرِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَهُ فِي الْعَامِّ، لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَقُولُ: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ}، الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُ فِيهِمْ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-. {وَالرُّوحُ فِيهَا}.

{بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} مَأْذُونًا لَهُمْ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالنُّزُولِ.

{مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}، وَ(مِنْ) بِمَعْنَى الْبَاءِ؛ أَيْ: بِكُلِّ أَمْرٍ مِمَّا يُرِيدُهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْ هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِوَصْفٍ عَظِيمٍ جِدًّا، فَقَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: {سَلَامٌ هِيَ}، وَ(سَلَامٌ) خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، وَتَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يَدُلُّ عَلَى الِاخْتِصَاصِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

فَجَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّلَامَ فِيهَا عَامًّا عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهِ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، فَجَعَلَ الِاخْتِصَاصَ قَائِمًا بِتَقْدِيمِ الْخَبَرِ وَحَقُّهُ أَنْ يُؤَخَّرَ، فَأَتَتْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

{سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، فَقَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السَّلَامُ الْخَاصُّ، وَلَمْ تَعُدْ تِلْكَ الْمَزِيَّةُ، وَانْقَضَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

يَقُولُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ**))، الْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، أَيْ: حُرِمَ خَيْرَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، الْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

وَلِذَلِكَ كَانَ الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَتَحَرَّاهَا وَيَتَوَخَّاهَا، وَيَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ، وَإِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ جَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وَاعْتَكَفَ طَلَبًا لَهَا حَتَّى لَا يَشْغَلَ أَمْرٌ عَنْهَا مَهْمَا كَانَ.

وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوَّلَ مِنْ رَمَضَانَ، فَقِيلَ لَهُ: ((**إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ**)) فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأَوْسَطَ مِنْ رَمْضَانَ، فَقِيلَ: ((**إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُ أَمَامَكَ**))، وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي دُلَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَلَى عَلَامَةٍ يَعْرِفُ بِهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِنْ وَافَقَهَا، فَإِنَّهُ رَأَى أَنَّهُ يَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا؛ أَيْ: بَعْدَ انْقِضَائِهَا فِي مَاءٍ وَطِينٍ. وَكَانَتْ لَيْلَةَ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ.

فَلَمَّا أَرْسَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ، وَكَانَ سَقْفُ مَسْجِدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَرِيشًا، وَكَانَتِ الْأَرْضُ مَدْكُوكَةً بِالْحَصْبَاءِ بِلَا فَرْشٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا نَزَلَ الْمَطَرُ نَزَلَ مِنَ الْعَرِيشِ مِنْ سَقْفِ الْمَسْجِدِ حَتَّى أَصَابَ أَرْضَهُ، وَسَجَدَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- صَبِيحَتَهَا فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي مَاءٍ وَطِينٍ، وَرَأَى الْأَصْحَابُ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ وَأَنْفِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَكَانَتْ لَيْلَةَ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ.

النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- جَاءَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَئَتْ أَنَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَالْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ**)).

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: ((**الْتَمِسُوهَا فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى، فِي ثَالِثَةٍ تَبْقَى**))، وَهَذَا الْحَدِيثُ فَهِمَ مِنْهُ أَبُو سَعِيدٍ، وَأَخْبَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللهُ- عَنْ تَفْصِيلِ مَا فَهِمَهُ هَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ، فَهِمَ مِنْهُ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِذَا كَانَ الشَّهْرُ تَامًّا تَكُونُ فِي الْأَشْفَاعِ لَا فِي الْأَوْتَارِ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الشَّهْرُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، فَإِنَّ ((تَاسِعَةٍ تَبْقَى)) هِيَ لَيْلَةُ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ، وَكَذَلِكَ ((سَابِعَةٍ تَبْقَى)) فِي لَيْلَةِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ.

إِذَنْ؛ إِذَا كَانَ الشَّهْرُ تَامًّا، فَعَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- تَكُونُ لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْأَشْفَاعِ لَا فِي الْأَوْتَارِ، لِقَوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**فَالْتَمِسُوهَا فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى، فَالْتَمِسُوهَا فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى**)) فَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَشْفَاعِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الشَّهْرُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، فَلَا خِلَافَ، فَهَذَا يُوَاطِئُ هَذَا فِي الْأَوْتَارِ وَفِي الْأَشْفَاعِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**الْتَمِسُوهَا فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى**)) إِذَا كَانَ الشَّهْرُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ تَكُونُ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَهِيَ مِنَ الْأَوْتَارِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَيَتَوَافَقُ ذَلِكَ مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ**)) وَفِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْأَوْتَارِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ الشَّهْرُ تَامًّا وَغَيْرَ تَامٍّ مَعَ قَوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ((**فِي الْأَوْتَارِ**)) وَقَوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**الْتَمِسُوهَا فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى**)) فَإِنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ الْحَرِيصَ عَلَى دِينِهِ الشَّحِيحَ بِزَمَانِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَلْتَمِسَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْأَشْفَاعِ وَفِي الْأَوْتَارِ عَلَى السَّوَاءِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يُفَرِّطُ فِي خَيْرٍ كَثِيرٍ.

فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا لَيْلَهُ، وَفِي رِوَايَةٍ: ((**أَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ**))، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَأْتِي النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ

وَسَلَّمَ- فِي كُلِّ عَامٍ فِي رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَدَارَسَهُ الْقُرْآنَ مَرَّتَيْنِ.

فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَكَانَ يَعْتَزِلُ النِّسَاءَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، غَيْرَ أَنَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حَتَّى فِي هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ وَفِي طَلَبِهِ، كَانَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَنْحُو مَنْحَى الرِّفْقِ، وَمَنْحَى التَّيْسِيرِ، بِحَيْثُ إِنَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَأْخُذُ الْأُمَّةَ عَلَى هِينَةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقِيمَهَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَإِنَّهُ أَمَرَ بِضَرْبِ خِبَائِهِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ فِي سَنَةٍ، ثُمَّ إِنَّ حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- اسْتَئْذَنَتَا فِي أَنْ تَضْرِبَا خِبَاءَيْهِمَا فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَكَانَ، ثُمَّ جَاءَتْ زَيْنَبُ فَضَرَبَتْ خِبَاءَهَا أَيْضًا لِتَعْتَكِفَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَرَأَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الْأَخْبِيَةَ، فَقَالَ: **((مَا هَذَا؟))**

فَقَالُوا: هَذِهِ أَخْبِيَةُ فُلَانَةٍ وَفُلَانَةٍ وَفُلَانَةٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ- مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

فَأَمَرَ بِهَا فَقُوِّضَتْ، وَبِخِبَائِهِ فَقُوِّضَ، ثُمَّ إِنَّهُ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الْأُوَلَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَلَمْ يَعْتَكِفْ فِي رَمَضَانَ فِي ذَلِكَ الْعَامِ.

فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَرَادَ أَنْ يَسُدَّ بَابًا يُفْتَحُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ؛ لِأَنَّهُ مَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُ أَنْ تَأْتِيَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَتَضْرِبَ خِبَاءَهَا فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ، وَلَرُبَّمَا أَتَتْ مِنَ الصَّحَابِيَّاتِ مَنْ أَتَتْ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِنَّ-، فَتَضْرِبُ الْخِبَاءَ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِتَقْوِيضِ أَخْبِيَةِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ وَيُبْقِي خِبَاءَهُ، وَإِنَّمَا أَمَرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِتَقْوِيضِ خِبَائِهِ مَعَ أَخْبِيَتِهِنَّ، ثُمَّ اعْتَكَفَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الْعَشْرَ الْأُوَلَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- .

فَهَذَا الزَّمَانُ زَمَانٌ شَرِيفٌ جِدًّا، فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُرَاعِيَ فِيهِ أُمُورًا:

عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ، وَفِي الصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَمُدَارَسَتِهِ، وَأَنْ يَمُدَّ فِي حَبْلِ السَّهَرِ إِلَى السَّحَرِ الْأَعْلَى، بَلْ إِلَى الْفَجْرِ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا أَخْبَرَتْ عَائِشَةُ كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، وَفِي رِوَايَةٍ أَتَتْ بِعَلَامَةٍ فَارِقَةٍ، وَصِفَةٍ كَاشِفَةٍ، قَالَتْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-: ((**كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ**)) يَعْنِي: فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ.

فَعَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ فَارِغًا لَا يَمْلِكُ مَا يَشْغَلُ بِهِ نَفْسَهُ، فَيُنْفِقُ عُمُرَهُ، وَيُبَدِّدُ رَأْسَ مَالِهِ، أَنْ يَنْظُرَ إِلَى حَالِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَقَدْ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنَّهُ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ لَا تَكُونُ حَيَاةً إِلَّا بِعِبَادَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا تَكُونُ الْحَيَاةُ حَيَاةً إِلَّا بِإِنْفَاقِ الْأَعْمَارِ فِي طَاعَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَخُصُّ الْعَشْرَ دُونَ الشَّهْرِ، بَلْ دُونَ الْعَامِ، يَخُصُّهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِمَزِيدِ تَعَبُّدٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يُصَفِّيَ النَّفْسَ وَأَنْ يُهَذِّبَ الْوَقْتَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا أَخْبَرَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ لَمْ يَدَعْ -أَيْ: لَمْ يَتْرُكْ- أَحَدًا مُطِيقًا لِلْقِيَامِ إِلَّا أَيْقَظَهُ، فَكَانَ يُوقِظُ أَهْلَهُ، كَمَا ذَكَرَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فِي حَدِيثِهَا: ((**أَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَشَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ**)).

فَكَانَ يَأْمُرُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كُلَّ مُطِيقٍ لِلْقِيَامِ أَنْ يَقُومَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَعَبَّدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهَا مَزِيَّةً عَلَى سَائِرِ اللَّيَالِي.

وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا أَخْبَرَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وَقَدْ سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ عَلِمْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَيَّ لَيْلَةٍ هِيَ، مَاذَا أَقُولُ؟!

فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**)). وَهَذَا حَدِيثٌ ثَابِتٌ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي ((جَامِعِهِ)).

عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- تَسْتَدِلُّ عَلَى أَفْضَلِ مَا يُقَالُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَأَخْبَرَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّ أَفْضَلَ مَا يُقَالُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ هُوَ أَنْ يُدْعَى الرَّبُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ: ((**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**)).

فَإِذَا عَفَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنِ الْعِبَادِ فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ يَصِيرُونَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ يَعْفُ عَنْهُمْ فَيَا حَسْرَتَا عَلَى الْعِبَادِ!!

فَأَخْبَرَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِمَا يُقَالُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

أَرَأَيْتَ لَوْ عَلِمْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَيَّ لَيْلَةٍ هِيَ، مَاذَا أَقُولُ؟

فَأَرْشَدَهَا الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

إِذَنْ؛ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ نَعْلَمُ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ يُمْكِنُ أَنْ تُعْلَمَ لِمَنْ يُوَفِّقُهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ لِعِلْمِهَا وَمَعْرِفَتِهَا.

أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ أَيَّ لَيْلَةٍ هِيَ، مَاذَا أَقُولُ؟!

فَيُمْكِنُ أَنْ تُعْلَمَ.

وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا رَأَى الرُّؤْيَا، وَقَالَ: ((**وَأُرِيتُ أَنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي مَاءٍ وَطِينٍ**))، فَكَانَتْ عَلَامَةً، وَلَكِنْ هَذِهِ الْعَلَامَةُ كَانَتْ

بَعْدُ، وَالَّتِي تَذْكُرُهَا عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وَتَسْتَعْلِمُ عَنِ الذِّكْرِ فِيهَا عَلَامَةٌ حَالِيَّةٌ، بِمَعْنَى أَنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّهَا هَذِهِ اللَّيْلَةُ وَلَمْ تَنْقَضِ اللَّيْلَةُ بَعْدُ، فَتَقُولُ: مَاذَا أَقُولُ؟

فَيَقُولُ الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: ((**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**)).

يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: هَلْ يُشْتَرَطُ مِنْ أَجْلِ إِصَابَةِ الْخَيْرِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ بِهَا عَالِمًا، أَنْ يَدْرِيَ أَنَّ اللَّيْلَةَ الَّتِي يُزَاوِلُهَا وَيُعَالِجُ مِنْ أُمُورِ الْعِبَادَةِ فِيهَا مَا يُعَالِجُ هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ؟!

لَا يُشْتَرَطُ، وَلَعَلَّ رَجُلًا يُخْلِصُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْعِبَادَةَ مُخْلِصًا، وَآخَرُ يَعْلَمُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَيَتَحَصَّلُ الْأَوَّلُ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى مَا لَا يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ الثَّانِي؛ لِإِخْلَاصِ قَلْبِهِ لِرَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

إِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- جَعَلَ هَذَا الزَّمَانَ الشَّرِيفَ زَمَانًا يَنْقَطِعُ فِيهِ الْعَبْدُ عَنْ حَرَكَةِ الْحَيَاةِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْكُنَ إِلَى الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ وَالتَّبَتُّلِ وَالصَّلَاةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَإِحْيَاءِ اللَّيْلِ.

إِحْيَاءُ اللَّيْلِ الَّذِي يَكُونُ فِي سَائِرِ الْعَامِ مَيِّتًا، يَكُونُ الْعَبْدُ فِي سَائِرِ الْعَامِ لَا يُقْبِلُ عَلَى رَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِلَيْلٍ، وَإِنَّمَا هُوَ حِمَارٌ بِالنَّهَارِ وَجِيفَةٌ بِاللَّيْلِ، فَلَيْلُهُ مَيِّتٌ عَلَيْهِ، لَيْلُهُ لَا حَيَاةَ فِيهِ، فَإِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ، فَإِنَّ الرَّسُولَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يُرْشِدُهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَتَعَبَّدُ فِي لَيَالِي

الْعَشْرِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ الْمَوْصُوفِ، فَيُحْيِي الْمَرْءُ لَيْلَهُ، وَيُعَمِّرُ أَوْقَاتَهُ بِذِكْرِ رَبِّهِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى سَيِّدِهِ وَمَوْلَاهُ.

وَهَذَا إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَيْهِ الْتِفَاتًا صَحِيحًا فِي هَذَا الْعَصْرِ لِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا: أَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ مَنَّ عَلَى النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِوَسَائِلَ كَثِيرَةٍ تَعَلَّمَ بِهَا الْخَلْقُ كَثِيرًا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَحَصَّلُوا كَلَامًا، حَصَّلُوا عِلْمًا، فَمَا تَجِدُ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يُمْكِنُ أَنْ يَدُلَّكَ عَلَى أَمْرٍ مَا كُنْتَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ سَنَةً تَسْمَعُ مِثْلَهُ إِلَّا مِمَّنْ كَانَ مُتَضَلِّعًا بِالْعِلْمِ وَحَائِزًا لَهُ!!

وَأَمَّا الْآنَ فَالنَّاسُ فِي جُمْهَرَتِهِمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ مَا يَعْلَمُونَ، قَدْ تَكُونُ مَعْرِفَةً مُشَوَّشَةً، وَقَدْ تَكُونُ مَعْرِفَةً مُحَرَّفَةً، وَلَكِنَّهَا مَعْرِفَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

هَذَا الْجَانِبُ الْعَلَمِيُّ تَخَلَّفَ عَنْهُ الْجَانِبُ الْعَمَلِيُّ الْعِبَادِيُّ، وَهَذَا خَطِيرٌ جِدًّا، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَخَلَّفَتْ قُوَّتُهُ الْعَمَلِيَّةُ عَنْ قُوَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ كَانَ كَالطَّائِرِ الَّذِي قُصَّ أَحَدُ جَنَاحَيْهِ أَوْ صَارَ أَحَدُ جَنَاحَيْهِ مَهِيضًا مَكْسُورًا، فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ يَدُفَّ بِأَحَدِ جَنَاحَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يُحَلِّقَ فِي أَجْوَازِ الْفَضَاءِ!!

وَهَذَا مَا أَصَابَ طُلَّابَ الْعِلْمِ، بَلْ وَأَصَابَ جَمَاهِيرَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ؛ فَإِنَّهُمْ عِنْدَهُمْ كَلَامٌ يَعْلَمُونَهُ عَنِ الدِّينِ، عِنْدَهُمْ أُمُورٌ مِنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَارَتْ مَحْفُوظَةً وَصَارَتْ مَعْلُومَةً، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَتَخَلَّفَ تَخَلُّفًا مَرِيعًا، تَخَلُّفًا ذَرِيعًا قَبِيحًا مَعِيبًا.

وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مَا كَانَ يَدَعُ الْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ حَتَّى فِي أَحْلَكِ الْأَوْقَاتِ، حَاشَ لِلَّهِ، بَلْ إِنَّ فِي أَعْصَبِ أَوْقَاتِ اللِّقَاءِ وَالْكِفَاحِ وَالْجِلَادِ مَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إِلَّا بَاذِلًا مِنْ نَفْسِهِ لِرَبِّهِ بِعِبَادَتِهِ مَا لَا يَصْنَعُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ حَالَاتِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

أَلَمْ تَعْلَمْ مَا صَنَعَ الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عِنْدَ اللِّقَاءِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي يَوْمِ الْفُرْقَانِ، وَكَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَتَبَتَّلُ دَاعِيًا رَبَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَرْفَعُ يَدَيْهِ مُتَبَتِّلًا حَتَّى انْحَسَرَتْ بُرْدَتُهُ عَنْ كَتِفَيْهِ، وَحَتَّى بَدَتْ عُفْرَتَا إِبِطَيْهِ، وَحَتَّى أَتَى الصِّدِّيقُ فَجَعَلَ الْبُرْدَةَ عَلَى كَتِفَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَوِّنْ عَلَيْكَ، بَعْضَ مُنَاشَدَتِكَ رَبَّكَ فَإِنَّ اللهَ مُنْجِزُكَ مَا وَعَدَكَ!

وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يُقْبِلُ عَلَى رَبِّهِ؛ نَعَمْ، لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ {إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا}، هَذَا يَتَعَلَّقُ بِإِيمَانِكُمْ وَأَبْدَانِكُمْ، وَأَمَّا أَلْسِنَتُكُمْ وَأَيْضًا قُلُوبُكُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ تُشْغَلَ بِذِكْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

{فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} حَتَّى فِي اللِّقَاءِ فِي الْجِلَادِ، حَتَّى فِي سَاحَاتِ الْوَغَى عِنْدَمَا تَتَطَايَرُ الْأَشْلَاءُ، وَتَنْزِفُ الدِّمَاءُ، وَتُقْطَعُ الرُّءُوسُ وَالْأَطْرَافُ، وَتَصِيرُ الْأَشْلَاءُ مُبَعْثَرَةً تَطَؤُهَا الْأَقْدَامُ، حِينَئِذٍ يَأْتِي الذِّكْرُ كَمَا أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

{إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وَفِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ أَنَّ تَعْلِيقَ الْفَلَاحِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الذِّكْرِ، وَفِي وَجْهٍ ثَانٍ إِنَّمَا جَعَلَهُ مُعَلَّقًا عَلَى الثَّبَاتِ، وَفِي وَجْهٍ ثَالِثٍ أَنَّهُ عَلَّقَهُ عَلَيْهِمَا مَعًا.

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} إِنْ ذَكَرْتُمُ اللهَ كَثِيرًا فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ.

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} لَوْ ثَبَتُّمْ كَمَا أَمَرْتُكُمْ.

أَوْ تَحْمِلُ ذَلِكَ عَلَى الْأَمْرَيْنِ مَعًا؛ إِنْ ثَبَتُّمْ وَذَكَرْتُمُ اللهَ كَثِيرًا، فَأَنْتُمْ عَلَى رَجَاءِ الْفَلَاحِ وَالْفَوْزِ وَالنَّصْرِ يُؤْتِيكُمُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِيَّاهُ.

فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَدْعُو رَبَّهُ وَيَأْخُذُ بِهَذَا الْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ مِنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ دَاعِيًا فِي هَذَا الْمَوْقِفِ، يَمْتَثِلُ أَمْرَ سَيِّدِهِ {وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

مَا أَكْثَرَ مَا يُفَرِّطُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَخَاصَّةً مَا يَصْنَعُهُ طُلَّابُ الْعِلْمِ وَالَّذِينَ يُقْبِلُونَ عَلَى التَّعَلُّمِ مِنْ تَنْحِيَةِ الْجَانِبِ الْعِبَادِيِّ، الْجَانِبِ الَّذِي فِيهِ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ، وَتَزْكِيَةُ وَتَطْهِيرُ الضَّمِيرِ هُوَ أَهَمُّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَيْهِ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ!

النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا فِي حَدِيثِ ((الْمُسْتَدْرَكِ)) الثَّابِتِ عَنْ حُذَيْفَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ وَآتَى اللهُ الْمُسْلِمِينَ النَّصْرَ، وَأَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ حُذَيْفَةَ مَعَ مَا كَانَ هُنَالِكَ مِمَّا وَصَفَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ زَلْزَلَةِ الْأَقْدَامِ، وَمِنَ الْخَوْفِ الْمُحِيطِ، وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ، وَارْتِفَاعِ

الْقُلُوبِ إِلَى الْحَنَاجِرِ، خَوْفًا وَفَزَعًا، وَرَجَاءً وَطَمَعًا، وَمَا كَانَ هُنَالِكَ مِنَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنَ الْبَرْدِ مَا فِيهَا، وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَأْمُرُ حُذَيْفَةَ أَنْ يَأْتِيَ بِنَبَأِ الْقَوْمِ، وَالرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَائِمٌ يُصَلِّي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

لَمَّا أَرْسَلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- رَبِيئَةً يَأْتُونَ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَأَحْرُسُ أَنَا، أَمْ تَقُومُ أَنْتَ حَارِسًا أَوَّلَ اللَّيْلِ وَأَنَامُ أَنَا؟!

فَقَالَ: أَنَامُ أَنَا وَقُمْ مَا شِئْتَ.

فَقَامَ فَأَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَأَصَابَهُ، ثُمَّ سَهْمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي وَهُوَ يَمُوجُ فِي دَمِهِ، هَكَذَا النَّصُّ ((وَهُوَ يَمُوجُ فِي دَمِهِ))، فَكَأَنَّمَا صَارَ الدَّمُ بَحْرًا يَحْتَوِيهِ، وَيَمَّا يُلَاطِمُهُ بِأَوَاذِيهِ، وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَلَّمَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يَدَعْ ذِكْرَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهِ، بَلْ كَانَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَكَانَ يَذْكُرُ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَلَى جَمِيعِ حَالَاتِهِ.

وَالْعَبْدُ الْمُسْلِمُ يَذْكُرُ رَبَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ إِلَّا فِي حَالَتَيْنِ؛ فِي حَالَةِ قَضَاءِ حَاجَتِهِ، وَفِي حَالَةِ جِمَاعِهِ أَهْلَهُ. فَإِنَّ هَذَيْنِ الْمَوْطِنَيْنِ مِمَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يَذْكُرَ الْعَبْدُ فِيهِمَا رَبَّهُ بِلِسَانِهِ.

وَأَمَّا ذِكْرُ رَبِّهِ بِقَلْبِهِ فَذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ، حَتَّى فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْحَالَاتِ، لَا يَمْنَعُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَانِعٌ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ قَلْبُهُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَبِالْإِقْبَالِ عَلَى سَيِّدِهِ عَبْدٌ مَوْصُولٌ بِهِ رَحَمَاتُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا تَغِيبُ رَحْمَةُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْخَاصَّةُ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ الْعَامَّةُ فَإِنَّهَا تَشْمَلُ الْكُلَّ حَتَّى الْكَافِرِ، فَإِنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَرْحَمُ الْكَافِرَ رَحْمَةً عَامَّةً، فِي بَدَنِهِ؛ يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ، وَيَمُنُّ عَلَيْهِ بِالْحِفْظِ وَالْكَلَاءَةِ، وَإِلَّا لَتَخَطَّفَتْهُ الشَّيَاطِينُ.

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ بِالتَّوْفِيقِ لِلْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْإِقَامَةِ عَلَى ذَلِكَ، مَعَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ فِي الْآخِرَةِ، فَهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ.

فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْجَانِبِ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ حَدَثَ عِنْدَهُمْ هَذَا الْفِصَامُ النَّكِدُ بَيْنَ عِلْمٍ يُعْلَمُ، وَعَمَلٍ يُعْمَلُ، هَذَا خَطِيرٌ! لِأَنَّهُ إِذَا وَقَعَ الْفَصْلُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ، فَإِنَّ الْهُوَّةَ الَّتِي تَنْشَأُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْأَمْرَيْنِ لَا تُرْدَمُ إِلَّا بِالنِّفَاقِ!

لِأَنَّ الْمَرْءَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلِيمَ اللِّسَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْجَنَانِ، فَيَتَكَلَّمُ كَثِيرًا وَيَقُولُ كَلَامًا حَسَنًا، وَهَذَا عَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ، غَيْرُ عَالِمٍ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَإِنَّ الْعِلْمَ عِنْدَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مَا أَوْرَثَ الْخَشْيَةَ، فَدَلَالَةُ الْأُمَّةِ عَلَى تَقْوِيَةِ الْجَانِبِ الْعِبَادِيِّ بِحَيْثُ يَكُونُ مُنْضَبِطًا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ تَضُرُّ أَكْثَرَ مِنَ التَّفْرِيطِ فِي الْعِبَادَةِ عَلَى الْعِلْمِ، فَنَوْمٌ عَلَى عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ عَلَى جَهْلٍ، لِأَنَّ الْجَاهِلَ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِمَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يَزْدَادُ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا بُعْدًا.

إِذَنْ؛ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ يَجْعَلُ لِلْأُمَّةِ مَعْلَمًا تَفِيءُ إِلَيْهِ، يَجْعَلُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلْأُمَّةِ حَنَانًا تَأْوِي إِلَيْهِ، يَجْعَلُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِلْأُمَّةِ هَذَا الْأَصْلَ الْأَصِيلَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَدُورَ حَوْلَهُ، وَأَلَّا تَنْفَكَّ عَنْ هَذَا الْمِحْوَرِ الَّذِي نُصِبَ لَهَا مِنْ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَيَّنَهُ لَهَا نَبِيُّهَا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

كَانَ يَجْتَهِدُ فِي رَمَضَانَ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ، وَكَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ اعْتَكَفَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

وَفِي الِاعْتِكَافِ انْقِطَاعٌ عَنْ أَحْوَالِ الْخَلْقِ، فِي الِاعْتِكَافِ انْقِطَاعٌ عَنْ مُوَاضَعَاتِ النَّاسِ، فِي الِاعْتِكَافِ انْقِطَاعٌ عَنْ مَأْلُوفِ النَّفْسِ وَعَادَاتِهَا، فِي الِاعْتِكَافِ أَخْذٌ بِالْعَزِيمَةِ بَعِيدًا عَنِ التَّرَخُّصِ الَّذِي يَحْيَا فِيهِ الْمَرْءُ طُولَ الْعَامِ.

وَعَلَيْهِ؛ فَسُنَّةُ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهِ، وَمِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ آتِيًا بِالْعِبَادَةِ بَعِيدًا عَنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَكْثُرُ كَلَامُهُ يَكْثُرُ خَطَؤُهُ، وَالَّذِي يَكْثُرُ خَطَؤُهُ وَيُحَاسَبُ عَلَى هَذَا الْخَطَأِ لَا بُدَّ أَنْ يُعَذَّبَ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا حَالُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ، فَكَانَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ، اعْتَزَلَ أَهْلَهُ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَاعْتَزَلَ النِّسَاءَ، ثُمَّ يَأْخُذُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِالْجِدِّ فِي أَمْرِهِ، فَيَشُدُّ الْمِئْزَرَ، وَيَجِدُّ الْجِدَّ كُلَّهُ، ((**جَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ، وَأَحْيَا اللَّيْلَ كُلَّهُ**)).

ثُمَّ يَجْعَلُ الْخَيْرَ عَامًّا فَلَا يَدَعُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهِ قَادِرًا عَلَى قِيَامٍ حَتَّى يُوقِظَهُ، يُوقِظُهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُصَلِّيَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَسَى أَنْ يُوَافِقَ اللَّيْلَةَ الْمُبَارَكَةَ، لِأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِذَا رَحِمَ فِيهَا عَبْدًا بِرَحْمَةٍ غَامِرَةٍ مِنْ رَحَمَاتِهِ الْوَاسِعَةِ فَإِنَّهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ وَتَفَضَّلَ بِجَمِيعِ الْفَضْلِ عَلَيْهِ؛ إِذْ آتَاهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ مَا آتَاهُ مِنَ الْقُرْبِ وَالْقُرَبِ، وَهَذَا فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

نَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِلْخَيْرِ، وَأَنْ يُيَسِّرَنَا لَهُ، وَأَنْ يُيَسِّرَ الْخَيْرَ لَنَا.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

[الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ]

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَرْسَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَهَادِيًا إِلَى صِرَاطِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَسِرَاجًا مُنِيرًا.

فَيَنْبَغِي عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ مُتَأَسِّيًا بِرَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَحِيدُونَ عَنْ نَهْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فِي أُمُورٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَقَدَّمَ فِيهَا أَحَدٌ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- بِأَمْرٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ تَوْقِيفِيَّةٌ يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَقَّفَ فِيهَا الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ عِنْدَ حُدُودِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى فِي هَذَا الزَّمَانِ الشَّرِيفِ حَتَّى فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ يَجْتَمِعُونَ عَلَى أُمُورٍ مِنَ الْبِدَعِ الْإِضَافِيَّةِ الَّتِي لَا تَزِيدُ الْعَبْدَ مِنْ رَبِّهِ إِلَّا بُعْدًا، فَيَتَوَافَقُونَ مُتَّعِدِينَ عَلَى أُمُورٍ تَحْدُثُ فِي مَسَاجِدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنَ الدُّعَاءِ الْجَمَاعِيِّ، وَمِنْ ذَلِكَ الصَّخَبِ وَالْهَرَجِ الَّذِي يَحْدُثُ فِي مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ،

وَمِنْ تَلْحِينِ الْأَئِمَّةِ لِلْأَدْعِيَةِ وَأَخْذِهِمْ بِالسَّجْعِ الْمُتَكَلَّفِ الَّذِي هُوَ كَسَجْعِ الْكُهَّانِ، وَالَّذِي لَا يُقَرِّبُ مِنَ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ.

وَإِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مُعَلِّمًا لِلْأُمَّةِ مَا آتَاهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مُبَلِّغًا إِيَّاهَا إِيَّاهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُتَأَسَّى بِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يُلْتَزَمَ نَهْجُهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يُقَصَّ عَلَى أَثَرِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُتَسَنِّنِ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَكُونَ حَرِيصًا فِي هَذَا الزَّمَانِ الشَّرِيفِ أَنْ لَا يَأْتِيَ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الْبِدْعَةِ الَّتِي لَمْ يَشْرَعْهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا فِي كِتَابِهِ وَلَا عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّصَ فِي هَذَا الزَّمَانِ الشَّرِيفِ -وَهَذَا مِنْ أَجَلِّ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ- أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الْبِدْعَةِ، أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الشِّرْكِ، أَنْ يُحَاوِلَ أَنْ يَكُونَ عَلَى قَدَمِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- اعْتِقَادًا وَعِبَادَةً وَمُعَامَلَةً وَأَخْلَاقًا وَسُلُوكًا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ الطُّرُقَ كُلَّهَا إِلَيْهِ مَسْدُودَةً، إِلَّا طَرِيقًا جَاءَ فِيهِ الْآتِي، وَسَلَكَ فِيهِ السَّالِكُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، كُلُّ الطُّرُقِ إِلَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَسْدُودَةٌ إِلَّا طَرِيقًا أَتَى فِيهِ الْآتِي خَلْفَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

((كُلُّ **أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**))؛ يَعْنِي: إِلَّا مَنْ رَفَضَ وَامْتَنَعَ.

قِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللهِ؟!

قَالَ: ((**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**)).

إِذَنْ؛ مَنْ لَمْ يُطِعْ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَهُوَ رَافِضٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ، لِأَنَّ اتِّبَاعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هُوَ السَّبِيلُ الْمُمَهِّدَةُ إِلَى جَنَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالَّذِي يَحِيدُ عَنْ نَهْجِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- هُوَ سَائِرٌ عَلَى غَيْرِ سَبِيلٍ، لَيْسَ عَلَى الْجَادَّةِ الَّتِي تَرَكَنَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- عَلَيْهَا؛ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ.

فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُرَاجِعَ نَفْسَهُ وَأَنْ يُحَاوِلَ الْمُوَازَنَةَ بَيْنَ الْجَانِبِ الْعِلْمِيِّ عِنْدَهُ، وَبَيْنَ الْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَتَوَلَّدُ فِيهِ مِنَ الْآفَاتِ مِنْ آفَاتِ الْعِلْمِ مَا يَتَوَلَّدُ عَلَى قَدْرِ مَا حَصَّلَ مِنَ الْعِلْمِ وَتَخَلَّفَ عَنْهُ الْعَمَلُ.

وَأَمَّا النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَإِنَّهُ كَانَ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عِلْمٍ وَعَمَلٍ، وَإِنَّمَا تَنْزِلُ الْآيَاتُ مِنَ السَّمَاءِ فَتُلْتَزَمُ، وَتَتَحَوَّلُ إِلَى وَاقِعٍ يُعَاشُ.

وَكَذَا كَانَ الْأَصْحَابُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- يَتَعَامَلُونَ مَعَ وَحْيِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَنْزِلُ بِهِ أَمِينُ الْوَحْيِ عَلَى أَمِينِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، فَكَانُوا يَتَعَلَّمُونَ وَيَفْقَهُونَ مَا يَتَعَلَّمُونَهُ فِقْهًا صَحِيحًا مِنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، يَتَحَفَّظُونَ آيَاتِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَقْرَءُونَهَا؛ بِمَعْنَى الْحِفْظِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، يَقْرَءُونَ الْآيَاتِ الَّتِي تَتَنَزَّلُ مِنْ عُلْيَا السَّمَوَاتِ يَنْزِلُ بِهَا جِبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْأَرْضِ

وَالسَّمَوَاتِ، وَحِينَئِذٍ يَتَدَبَّرُونَ مُتَفَقِّهِينَ فِي مَرَامِيهَا، وَيَبْحَثُونَ عَنِ الْمَطْلُوبِ مِنْهَا، وَعَمَّا نَهَى اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْهُ مِمَّا دُلَّ عَلَيْهِ بِهَا، وَحِينَئِذٍ إِذَا مَا عَلِمُوا ذَلِكَ عَمِلُوا بِهِ، فَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا.

تَدْرِي! إِنَّ أَزْمَةَ الْأُمَّةِ الْيَوْمَ إِنَّمَا هِيَ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهَا!

تَدْرِي! إِنَّ أَزْمَةَ الْأُمَّةِ الْيَوْمَ إِنَّمَا هِيَ بِسَبَبِ الْمُشْتَغِلِينَ بِالْعِلْمِ فِيهَا.

لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَرِّرُوا الْقَضِيَّةَ، فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ وَلَا يَعْمَلُونَ!

مَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ وَلَا يَزِيدُهُمُ الْعِلْمُ خَشْيَةً!

وَالْعِلْمُ مَا أَوْرَثَ الْخَشْيَةَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}.

فَالْعُلَمَاءُ هُمْ أَصْحَابُ الْخَشْيَةِ، وَالْعِلْمُ مَا أَوْرَثَكَ الْخَشْيَةَ!

وَأَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُورِثُكَ خَشْيَةً، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالْعِلْمِ الْمَطْلُوبِ شَرْعًا، وَهَذَا لَا يَزِيدُكَ عَنِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِلَّا بُعْدًا.

فَحَجَبُوا وَجْهَ الْعِلْمِ الصَّافِي عَمَّنْ دُونَهُمْ مِنَ الْأُمَّةِ، فَظَنُّوا أَنَّ هَذَا هُوَ الْعِلْمُ، ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الِانْحِرَافُ فِي مَبْدَأِ الطَّلَبِ، وَتَوَغَّلَ الْقَوْمُ فِي الطَّلَبِ، زَادَ الْبُعْدُ عَنِ الْغَايَةِ كَالَّذِي لَا يَبْدَأُ فِي سُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِدَايَةً صَحِيحَةً، وَإِنَّمَا يَنْحَرِفُ

عَنِ الْقَصْدِ وَلَوْ قَدْرًا يَسِيرًا، فَإِنَّهُ كُلَّمَا جَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ فِي الْعَمَلِ أَوْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، زَادَ بُعْدًا عَنْ غَايَتِهِ، حَتَّى لَرُبَّمَا اسْتَدْبَرَهَا، وَصَحَّ فِيهِ قَوْلُ الشَّاعِرِ الْقَدِيمِ:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّبًا = شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

حَتَّى يَسْتَدْبِرَ غَايَتَهُ!!

هَذَا مَوْطِنُ الدَّاءِ الَّذِي تَرَاهُ وَاضِحًا لَائِحًا لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ، لَوْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ عُولِجَ مُعَالَجَةً صَحِيحَةً وَأَخَذَ أَهْلُ الْعِلْمِ الْعِلْمَ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤْخَذَ، لَيْسَ بِشَقْشَقَةِ لِسَانٍ، وَلَيْسَ بِتَحْصِيلٍ فِي صَدْرٍ لَا يُورِثُ عَمَلًا وَلَا يُورِثُ تَهْذِيبًا وَلَا يُورِثُ خَشْيَةً! مَا هَكَذَا كَانَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

وَهَذَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَهُوَ مِنَ الْعَشْرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، لَمَّا خَاصَمَتْهُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ عِنْدَ مَرْوَانَ، وَادَّعَتْ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَ مِنْهَا أَرْضًا غَصْبًا، وَجِيءَ بِهِ، فَعَرَضَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ، قَالَ: أَنَا؟! أَنَا أَغْتَصِبُ أَرْضَهَا وَأَنَا الَّذِي أَرْوِي عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَأَنَا الَّذِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: ((**مَنِ اغْتَصَبَ شِبْرًا مِنْ أَرْضٍ طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))، وَفِي رِوَايَةٍ: ((**طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)).

أَنَا؟! أَنَا أَفْعَلُ هَذَا وَمَعِي هَذَا الْحَدِيثُ؟!

قَالَ: لَا أُطَالِبُكَ بِبَيِّنَةٍ بَعْدَهَا، وَاكْتَفَى مِنْهُ أَنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لِيَهْدِرَ بِهَا لِسَانُهُ بَيْنَ شِدْقَيْهِ ثُمَّ لَا يُؤَثِّرُ هَذَا فِيهِ شَيْئًا.

هَذَا خَطِيرٌ! وَهُوَ الَّذِي حَرَفَ الْأُمَّةَ عَنْ سَبِيلِهَا بِعُلَمَاءِ السُّوءِ مِنْ قَبْلُ، وَبِالَّذِينَ أَخَذُوا بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ عَلَى الْمَنْهَجِ السَّوِيِّ مِنْ بَعْدُ؛ غَيْرَ أَنَّهُمْ فَرَّقُوا، وَلِذَلِكَ تَجِدُ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ لَائِحَةً، وَلَا تَجِدُ أَمَارَاتِ الْآخِرَةِ فِيهِمْ وَاضِحَةً، وَإِنَّمَا تَجِدُ انْحِرَافًا عَنْ سَبِيلِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ!

وَمَا هَكَذَا الْعِلْمُ، وَمَا هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ طَلَبُهُ، وَلَا هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ بِهِ، لِلْعِلْمِ سَبِيلُهُ، وَضَّحَهَا لَنَا نَبِيُّنَا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وَبَيَّنَهَا لَنَا الْأَصْحَابُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- سُلُوكًا وَمِنْهَاجًا وَعَمَلًا.

فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَأَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ الزَّمَانِيَّةَ الَّتِي لَا يَدْرِي أَحَدُنَا لَعَلَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يَمُنُّ عَلَيْنَا بِهَا بَعْدُ، وَلَا يَدُورُ عَلَيْنَا الْعَامُ وَنَحْنُ أَحْيَاءٌ، وَإِنَّمَا نَحْنُ تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى، وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَهَذِهِ الْفُرْصَةُ الزَّمَانِيَّةُ وَهِيَ وَاضِحَةٌ لَائِحَةٌ مُتَاحَةٌ بَاهِرَةٌ زَاخِرَةٌ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَنَصَ. نَعَمْ، فَلْنَتَكَلَّمْ قَلِيلًا، وَلْنَعْمَلْ كَثِيرًا، وَلْنَجْتَهِدْ فِي تَصْفِيَةِ الْأَنْفُسِ بِالْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى نَهْجِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَمَا هُوَ نَهْجُهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-؟!

أَخْبَرَتْ عَنْهُ عَائِشَةُ ((**كَانَ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي سِوَاهُ**))، فِي هَذَا الزَّمَانِ كَانَ اجْتِهَادُهُ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الِاجْتِهَادِ، وَهُوَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- مَنْ هُوَ فِي الْعِبَادَةِ وَالسُّلُوكِ وَالْعَمَلِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

إِذَنْ؛ هَذَا الْعَشْرُ يَنْبَغِي أَنْ يُمْلَأَ بِالْخَيْرِ، يَنْبَغِي أَنْ يُمْلَأَ بِالْعِبَادَةِ، يَنْبَغِي أَنْ يُمْلَأَ بِالذِّكْرِ، يَنْبَغِي أَنْ يُمْلَأَ بِتَهْذِيبِ النَّفْسِ وَتَصْفِيَتِهَا، وَمُرَاجَعَةِ حِسَابَاتِهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ: فِي أَيِّ مَوْضِعٍ أَنْتَ؟!

أَنْتَ سِرْتَ مَا سِرْتَ، الْآنَ أَيْنَ أَنْتَ؟!

وَلِمَاذَا أَنْتَ هُنَا؟! وَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ؟! وَهَلْ هَذَا مِمَّا يَرْضَى اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْهُ؟!

لِأَنَّ سِيَاسَةَ الْقَطِيعِ إِنَّمَا هِيَ سِيَاسَةُ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ عَلَى أُمَّةٍ، وَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ، وَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، كَمَا أَخْبَرُوا فِي حُجَّتِهِمُ الدَّاحِضَةِ الْمَدْحُوضَةِ الْفَائِلَةِ، أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ عَلَى أُمَّةٍ.

فَلْسَفَةُ الْقَطِيعِ هَذِهِ فَلْسَفَةُ أَهْلِ النَّارِ!

أَنْتَ وَجَدْتَ نَفْسَكَ هَكَذَا، مَا هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَجِدَ نَفْسَكَ؛ لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَجِدَ نَفْسَكَ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَيْنَ الْفِطْرَةُ؟! يَنْبَغِي أَنْ تُرَاجِعَ نَفْسَكَ، وَهَذِهِ فُرْصَةٌ.

فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يُحْيِي اللَّيْلَ كُلَّهُ بِالذِّكْرِ بِالْعِبَادَةِ بِالدُّعَاءِ بِالِاسْتِغْفَارِ بِمُدَارَسَةِ الْقُرْآنِ بِالصَّلَاةِ، وَلَكِنْ هُنَالِكَ لَوْنٌ مِنْ

أَلْوَانِ الِانْقِطَاعِ عَنْ إِلْفِ الْعَادَةِ وَعَنْ مَأْلُوفِهَا، وَعَنْ مُوَاضَعَاتِ الْخَلْقِ وَعَنْ تَفَاهَاتِهِمْ، مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ التَّفَاهَاتُ قَائِمَةً بِإِزَاءِ الْمَسْجِدِ لَا تَدْخُلُهُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ هُنَالِكَ كَكَوْمَةٍ مِنَ النِّفَايَاتِ لَيْسَ يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُدْخِلَ النِّفَايَةَ وَالْقَاذُورَاتِ الْمَسْجِدَ أَبَدًا.

فَهَذِهِ الْأَخْلَاقُ وَهَذِهِ السُّلُوكِيَّاتُ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هُنَالِكَ كَكَوْمَةٍ مِنَ النِّفَايَةِ وَالْفَضَلَاتِ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ الْمُطْهَرَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَطَهَّرَ فِي بَيْتِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بِالِانْقِطَاعِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ بِإِمْسَاكِ اللِّسَانِ وَالْبَصَرِ وَبِحِفْظِ السَّمْعِ وَالْقَدَمِ وَالْيَدِ عَنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُ الرَّبَّ -جَلَّ وَعَلَا-.

لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تَحْتَاجُ أَبْنَاءَهَا، تَحْتَاجُ شَبَابَهَا وَشِيبَهَا، تَحْتَاجُ رِجَالَهَا وَنِسَاءَهَا قَائِمِينَ عَلَى مَا يَأْتِي اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالنَّصْرِ بِهِ، بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ، وَهِيَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بِمَعْرِفَةِ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ بِتَطْبِيقِ دِينِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى النَّفْسِ أَوَّلًا، حَتَّى لَا يَكُونَ هُنَالِكَ فَارِقٌ بَيْنَ عِلْمٍ وَعَمَلٍ، بَيْنَ حَدِيثٍ يُعْلَمُ وَسُلُوكٍ يُنْهَجُ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَأَتَّى مِنْ مُسْلِمٍ فَضْلًا عَنْ طَالِبِ عِلْمٍ، فَضْلًا عَمَّنْ يُسْلَكُ فِي سِلْكِ الْعُلَمَاءِ!!

هَذَا مَعِيبٌ جِدًّا!

وَهَذَا قَبِيحٌ جِدًّا!

وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ مَعَ قِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ، بَلْ مَعَ خُلُوِّ يَدِهِ -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ-، الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللهُ- مَعَ شِدَّةِ الْفَاقَةِ عِنْدَهُ، مَعَ الْفَقْرِ الَّذِي كَانَ مُحِيطًا بِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ أَعْظَمَ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيَّ بِهَا، هِيَ الْفَقْرُ. وَلَكِنْ لَا يَتَمَنَّاهُ، يَقُولُ: إِنَّهُ لَشَدِيدٌ.

لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- جَعَلَهُ فِي أَذْكَارِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ: ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ**))، وَقَرَنَهُمَا مَعًا.

الْإِمَامُ أَحْمَدُ مَعَ خُلُوِّ ذَاتِ يَدِهِ، وَمَعَ فَقْرِهِ الْمُدْقِعِ -رَحِمَهُ اللهُ-، قَالَ: لَمَّا احْتَجَمْتُ أَعْطَيْتُ الْحَجَّامَ دِينَارًا، وَالدِّينَارُ لَا يَكُونُ إِلَّا ذَهَبًا، وَلَعَلَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ- لَمْ يَتَحَصَّلْ عَلَى دِينَارٍ فِي حَيَاتِهِ سِوَاهُ، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَجْزِمَ بِذَلِكَ وَأَنْتَ مُطْمَئِنٌّ.

إِلَّا أَنَّهُ -رَحِمَهُ اللهُ- لَمَّا تَحَصَّلَ عَلَى هَذَا الدِّينَارِ، أَتَى بِالْحَجَّامِ فَحَجَمَهُ، ثُمَّ أَعْطَى الْحَجَّامَ دِينَارًا، يَقُولُ: لِأَنَّهُ مَرَّ عَلَيَّ فِي الْحَدِيثِ **أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا احْتَجَمَ أَعْطَى أَبَا طَيْبَةَ** (أَيِ: الْحَجَّامَ) **دِينَارًا**.

فَهَذَا يُطَبِّقُ هَذَا الْحَدِيثَ، وَلِأَنَّ مِنْ زَكَاةِ الْحَدِيثِ الْعَمَلَ بِالْحَدِيثِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّا لَنَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْعِلْمِ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ، فَمَا ثَبَّتَ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ، وَلَا ثَبَّتَ الْحَدِيثُ فِي الْفُؤَادِ إِلَّا الْعَمَلُ بِهِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ مِنْ قَوَانِينِ السَّلَفِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

فَعَلَيْنَا عِبَادَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ بِجِدٍّ، وَأَنْ لَا نَتَهَاوَنَ فِي الْأَخْذِ بِهَا، لِأَنَّهَا رُبَّمَا كَانَتْ آخِرَ فُرْصَةٍ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، نَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُحْسِنَ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ.

فَعَلَيْنَا أَنْ نَجْتَهِدَ فِي الْعِبَادَةِ وَفِي الذِّكْرِ وَفِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَسَى رَبُّنَا أَنْ يَرْحَمَنَا وَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

أَسْأَلُ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- أَنْ يَجْعَلَ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا وَأَنْ يَجْعَلَ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا.

اللَّهُمَّ خُذْ بِأَيْدِينَا إِلَيْكَ وَأَقْبِلْ بِقُلُوبِنَا عَلَيْكَ.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا وَاهْدِ بِنَا وَاجْعَلْنَا سَبَبًا لِمَنِ اهْتَدَى.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا وَاهْدِ بِنَا وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ.

اللَّهُمَّ هَيِّءْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْرَ رُشْدٍ يُعَزُّ فِيهِ أَهْلُ الطَّاعَةِ، وَيُذَلُّ فِيهِ أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ، وَيُقْضَى فِيهِ بِكِتَابِكَ وَسُنَّةِ نَبِيِّكَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.

اللَّهُمَّ أَلِّفْ بَيْنَ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ حُكَّامًا وَمَحْكُومِينَ، وَاجْمَعْهُمْ جَمِيعًا عَلَى مَا يُرْضِيكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ أَحْسِنْ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنَا الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ عِنْدَ الْمَمَاتِ.

اللَّهُمَّ أَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَتَوَفَّنَا مُؤْمِنِينَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ اجْمَعْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نَبِيِّنَا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- كَمَا آمَنَّا بِهِ وَلَمْ نَرَهُ، وَلَا تُفَرِّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ حَتَّى تُدْخِلَنَا مُدْخَلَهُ، وَأَحْيِنَا عَلَى سُنَّتِهِ، وَأَمِتْنَا عَلَى مِلَّتِهِ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَتَحْتَ رَايَتِهِ، وَأَوْرِدْنَا حَوْضَهُ، وَاسْقِنَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ شَرْبَةً هَنِيئَةً لَا نَظْمَأُ مِنْ بَعْدِهَا أَبَدًا.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ، وَاغْشَنَا بِسَكِينَتِكَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الْمَقْبُولِينَ الْمُقَدَّمِينَ عِنْدَكَ.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْإِخْلَاصَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ النِّفَاقِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الرِّيَاءِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ السُّمْعَةِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَبْدَانًا عَلَى الْبَلَاءِ صَابِرَةً، وَنَسْأَلُكَ أَلْسِنَةً ذَاكِرَةً، وَنَسْأَلُكَ أَفْئِدَةً شَاكِرَةً لَكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، مُقِيمَةً عَلَى تَوْحِيدِكَ وَالْيَقِينِ، يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ، وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَيَا ذَا الْقُوَّةِ الْمَتِينِ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-.